

حقيقة النصر

بقلم؛ وسيم فتح الله

قد ينظر الكثير منا إلى فتح مكة باعتباره معلّم النصر لصدر الأمة الأول، وهو معلّم انتصار عظيم وفتح من الله مبين لا ريب، ولكن هل هو حقيقة الانتصار أم ثمرته؟ وهل التمكين في الأرض هو جوهر النصر أم هو تنويج له؟ وإن لم يكن كذلك فما هي حقيقة النصر التي لا يضر معها تخلف حصول الثمرة وتأخر حفل التنويج؟

لقد سبق فتح مكة معارك عظام وأحداث جسام لم تكن ساحتها ميدان القتال بعد، كما لم تكن عدتها السيف والسنان بعد، وإنما كانت معركة من نوع آخر وكان تدافعا من نوع آخر، كانت معركة اسمها {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين} (الحجر 94)، وكانت معركة اسمها: {لكم دينكم ولي دين} (الكافرون 6)؛ ودارت رحى المعركة الأولى حول تجريد التوحيد: {واذكر اسم ربك وتبتل إليه تنبلا} * رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} (المزمل 8-9).

وكانت عُدّة المعركة الثانية: {فلا تطع المكذبين. ودوا لو تدهن فيدهنون} (القلم 8-9)، واشتدت أتون هذه الحرب وتمحضت معها حقيقة التوحيد في قلوب أولئك النفر فإذا بهم يتلذذون في أهاتهم ويتنعمون في أناتهم قد أغناهم حب الله عن كل ما سواه، وشغلهم مشهد العبودية عن مشهد التسخط على الأذى فيه سبحانه وتعالى، وكانت تلك بداية معركة التحرير وأولى ملامح الانتصار...

ثم أخذ مشهد المعركة يتميز شيئا فشيئا وأخذت معالم الطريق تتضح شيئا فشيئا، نعم لقد بدأ أولئك النفر يدركون أنه لا بد من تسديد بعض أقساط الجنة؛ فكانت الأقساط من أموالهم تارة ومن أجسادهم ولحومهم تارة، كانت من الولد والأهل تارة ومن العشيرة والوطن تارة، قطعوا ما بينهم وبين الناس ليقيموا ما بينهم وبين الله، وطلقوا الدنيا ليخطبوا الآخرة، وأفرغوا قلوبهم من كل ما سوى الله فتهيأت لغرسة التوحيد فيها، هَجَرُوا فهاجروا، وَعَذَّبُوا فصابروا، اسْتَنْصَرُوا فنصروا، واسْتَنْفَرُوا فنفروا، وكلما تجردوا من علائق الدنيا كلما تميزت عندهم معالم

النصر، وغدت ملامح الانتصار وحقيقته أكثر وضوحاً وأشد نورا من ذي قبل...

ثم كان أن تحول ميدان المعركة إلى السيف والرمح، وكانت بدر وما أدراك ما بدر، ولكن بريق النصر العسكري ونشوة أندحار العدو ومادته قد يخطف الأبصار أحيانا بل قد يعميها عن بعض الحقائق، فلربما ظن المسلمون أن النصر العسكري والغلبة والظهور المادي أمرٌ لازمٌ ملازمٌ، بل قد تزين نفس المرء له استحقاقها لهذا الظهور حتماً، كيف لا وقد اجتمعت الدواعي من التزام الحق وتأييد السيف له والإثخان في العدو وكسر شوكته وشكيمته، ولكن ليس هذا هو النصر، أو قل ليس هذا هو تمام النصر، بل كان لا بد من جولة أخرى يكتمل فيها انتصار الإسلام والمسلمين، وهكذا كانت غزوة أحد...

دخل المسلمون غزوة أحد ولربما كانت نشوة النصر في بدر أخذةً بلب بعضهم، ولربما خال بعضهم أنه ومنذ بدر نصرٌ بلا هزيمة وغلبة بلا أتكسار، ولربما توهم البعض أن مجرد التزام طريق الحق موجبٌ لدوام الظهور والتمكين، وعندما انقلبت موازين المعركة وتجرد المسلمون من كل رداء خلا العبودية المطلقة لله تمحضت آنذاك معالم النصر؛ عندما كسرت ثنية النبي بابي هو وأمي صلى الله عليه وسلم وشج وجهه الشريف تمحضت معالم النصر في أمة هكذا قاندها، أمة رأس الحرب فيها هو الإمام القائد أو قل الرئيس الحاكم، أمة لا ينشغل حاكمها بكرسي الدنيا عن كرسي الآخرة، قائدٌ يستشير الصغير والكبير وينزل عند رأي المخالف فيما لا يغضب الله تعالى تطيباً للقلوب وجبرا للخواطير، قائدٌ يصمد حين يلتفت الناس ويرفع لواء الحق حين يتواني عنه الناس، قائدٌ يسدد شيئاً من أقساط الجنة من لحمه ودمه حين يلوذ الناس بلحومهم ودمائهم...

وعندما لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم غير طلحة وسعد، وعندما قام أبو دجانة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فترس عليه بظهره والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك، وعندما جعلت أم عمارة نسيبة بنت كعب تذود عن النبي صلى الله عليه وسلم بكل ما أوتيت من قوة في تسعة رهط اجتمعوا حول النبي صلى الله عليه وسلم حين انفض عنه الناس، هنالك لاحت معالم النصر، وعندما أصيب زوج وأب وأخ المرأة من بني دينار وهي لا تسأل إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا رآته قالت: كل مصيبة بعدك جلل (أي هينة) عندها كان أحد معالم

الانتصار، عندما تحقق تقديم حب الله ورسوله على كل ما سواهما عندها كان النصر...

وعندما انحسر المسلمون وقد أعجبته قوتهم وعددهم لا يلوي أحدٌ منهم على أحد في كمين العدو لهم في حين تقدم النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه آنذاك ليعلن للناس جميعاً مسلمين وكفاراً أن أمر هذه الدعوة قائمٌ مهما انحسر عنه الناس وأن راية الحق أبداً مشرعةٌ مهما انكسرت لجندها شوكة، فاخذ - بابي هو وأمي صلى الله عليه وسلم - يدفع بغلته نحو الكفار وهو ينادي: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، عندها كان النصر، وعندها جلجلت كلمة الحق، أما ما كان بعد ذلك من اجتماع كتائب الحق على كلمة النبي صلى الله عليه وسلم وقهر عدوهم فلم يكن إلا ترجمة لهذا النصر وثمره من ثماره ليس إلا....

وليس هذا النصر الذي نتحدث عنه ظاهرة عابرة في تاريخ أمتنا، بل هو جزء لا يتجزأ من مسيرة كلمة التوحيد عبر العصور، فلقد انتصرت كلمة التوحيد من قبل حين سمت أرواح الموحدين فوق حضيض الدنيا، ورضيت بأن تحرق أجسادها في أخدود الكفر لتحلق أرواحها في سماء التوحيد ولتتعانق في حواصل طير خضر في سماء الجنة، إن سورة البروج في القرآن ليست تسجيلاً لمذبحة شنيعة لا يسعنا سوى التألم لحال أصحابها، كلا، إن سورة البروج تسجيل لانتصار تاريخي لكلمة التوحيد على شرذمة الكفر، نعم لقد قهر أصحاب الأخدود أجساد الموحدين وأحرقوها لكنهم لم يهزموا ولا نفس طفل واحد منهم، وليس القول بانتصار الموحدين يوماً ضرباً من المبالغة أو تطييب الخواطر كلا، بل هو والله الانتصار الحقيقي، وأي انتصار لأهل التوحيد أعظم من شهادة الله تعالى لهم بالإيمان، وأي هزيمة على الكفار أشد من تربص عذاب الحريق بهم، وأي حريق...

وقل مثل هذا في لقطات الانتصار التاريخية لكلمة الحق على الباطل:

فلقد انتصرت كلمة الحق من ذي قبل حين قال هايل:
{لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك
لاقتلك إني أخاف الله رب العالمين} (المائدة 28).

وانتصرت كلمة الحق حين قالت هيت لك فقال الكريم
بن الكريم بن الكريم: {معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه
لا يفلح الظالمون} (يوسف 23).

وانتصرت كلمة الحق حينما قال سليمان عليه السلام:
{أتمدون بمال فما أتاني الله خير مما أتاكم بل أتم
بهديتكم تفرحون} (النمل 36).

وانتصر الحق أيضاً يوم أن قذف الله تعالى نور الإيمان
في قلوب سحرة فرعون فإذا أنصار الباطل بالأمس شهداء
الحق اليوم: {فالقي السحرة سُجداً قالوا أمانا برب هارون
وموسى} (طه 70)، ولعل الانتصار قد بلغ ذروته حين
استخف المؤمنون الجدد بعذاب الدنيا لما لاقوه من حلاوة
الإيمان: {قالوا لن نُؤثرَكَ على ما جاءنا من البينات والذي
فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا}
(طه 72).

نعم هذه مواقف من الانتصار على النفس حيث مُنعت
ولجمت عن التعدي على الدم المعصوم والفرج الحرام
والمال غير المستحق والمنصب والجاه الفارغين، فسيجل
هذه الأمة سجل حافل بالانتصار بل هو سلسلة متصلة من
الانتصار أثمر غلبةً عسكرية أم لم يثمر...

وإن المتأمل في طبيعة النصر الذي قدمنا نماذج منه
ليدرك أن حقيقة الأمر ومداره على التمسك بالحق مهما
كان الثمن، والثقة بوعد الله مهما تأخرت الثمرة، ولهذا
فإني أقول بكل ثقة إن مشهد النصر الحقيقي لم يكن في
قوله تعالى: {فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وأتاه
الله الملك والحكمة}، بقدر ما كان في قوله تعالى: {إن
الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم
يَطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفةً بيده} (البقرة 249)،
نعم هنا كانت معالم النصر لأقوام ومعالم الهزيمة لآخرين:
{فشربوا منه إلا قليلاً منهم}.

وهؤلاء القليل هم الذين تعول عليهم أمة الإسلام في
كل زمان ومكان، أما عند الغلبة العسكرية والظهور
والتمكن فما أكثر المسلمين حينذاك وما أكثر من يجبون
الدين آنذاك، ولكن شتان بين من أحب الدين والدين غريب
وبين من أحب الدين والدين تجبى إليه ثمرات كل شيء،
وهذه هي حقيقة النصر...



**تم تنزيل هذه
المادة من
منبر التوحيد
والجهاد**

<http://www.tawhed.ws>
<http://www.almaqdese.com>
<http://www.alsunnah.info>